مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 07/ العدد: 04 سبتمبر (2021) - ص 314-322

وظيفة الضمائر من النصيّة إلى الحجاج: دراسة لنماذج مختارة من القرآن الكريم

Pronouns function from textual to argument:A study of selected examples from the Holy Quran

مراد معاذ مقري
mouradmekri1987@gmail.com
جامعة حسيبة بن بوعلي_شلف / الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/06/27 تاريخ القبول: 2021/09/04 تاريخ النشر: 2021/09/25

ملخص البحث

تطرقنا في مقالنا هذا إلى أن الضمائر آلية من آليات التماسك الكثيرة للمقاربة النصية، بغية معرفة عملها ضمن الخطاب الحجاجي، ولتفعيل ذلك حاولنا رصد عمل هذه الضمائر على نماذج مختارة من الخطاب القرآني، الذي انقضت الأعمار في دراسته ولم تفن عجائبه، وأسراره. فتوصلنا إلى أن وظيفة الربط بالضمير، وظيفة واحدة في لسانيات النص والحجاج. إضافة لإحكام الربط في الخطاب الحجاجي كانت أحيانا مؤشر حجة يفضي إليها السياق، ومن تم وسيلة إقناعية بإحداثها تأثيرا على القارئ.

الكلمات المفتاحية: قرآن الكريم، ضمائر، نصية، حجاج، تماسك.

ABSTRACT:

In our article, we discussed that pronouns are one of many coherence mechanisms of the textual approach, in order to know their work within the argument speech. In our article, we discussed that pronouns are one of many coherence mechanisms of the textual approach, in order to know their work within the argument speech. To operate this, we tried to observe the work of these pronouns on selected examples of the Qur'anic speech, which ages have passed away in its study and didn't die its wonders, and secrets.

key words: Quran, Pronouns, linguistics Text, argument, Cohesion.

1. المقدمة:

نشأت لسانيات النص والدرس الحجاجي بفضل التحول العميق، الذي شهدته الدراسات اللغوية، والبلاغية الحديثة، التي بدورها أفرزت لنا عدّة مقاربات، ومناهج في تحليل النصوص والخطابات، حيث تقوم هذه المقاربات على مجموعة من التقنيات والآليات، أصبح التعرف عليها من الموضوعات الهامة، التي تشغل عقل الباحث أثناء قراءته، وتحليله لنص، أو خطاب ما منتهجا طرقا، وتقنيات في كشف كنه النص، ومعاني الخطاب الظاهرة والخفية. فاهتم الحجاج بالبحث عن الوسائل التي يظفر من خلالها اقتناع المستمع، والمقاربة النصيّة تتجلى وظيفتها في الوقوف على البناء الكلي للنص من شدة تماسك وحداته، وبراعة انسجامه. لكن غايتنا من هذه الورقة البحثية هو التعرض لجزئية من جزئيات مجال اهتمامات لسانيات النص، والخطاب الحجاجي، حول معرفة أثر الضمير في كلا الحقلين، هل تختلف الوظيفة فيهما؟ أم أنّها وظيفة واحدة؟ هل التماسك النصي هو التماسك الحجاجي؟

2.الربط وتحقيق النصية في الخطاب الحجاجي:

تنوعت مشارب الحجاج، ومصادره لكن يبقى أهمها الجانب اللغوي، هو الشكل الحقيقي لمظهر الحجاج، فبعث الرسالة، ووقوع التأثير يقع عن طريق فعل التلفظ، حيث يقول ديكرو (Ducrot) «سننطلق من الملاحظة البسيطة (الواضحة) التي تقول إن كثيرا من أفعال التلفظ تتميز بوظيفة حجاجية، وتتمثل هذه الوظيفة في كون هذه الأفعال تسعى إلى جعل المخاطب يصل إلى نتيجة معينة، أو ينصرف عنها، وربما كانت أقل بساطة (وضوحا) الملاحظة التي تقول إن هذه الوظيفة تخلف علامات في بنية الجملة ذاتها، إنّ القيمة الحجاجية للملفوظ ليست ناتجة عن المعلومات التي يسوقها، فالجملة يمكن أن تتضمن صريفات، وعبارات، وصيغا مختلفة تؤدي بالإضافة إلى وظيفتها الإخباريّة وظيفة منح الملفوظ وجهة حجاجيّة»[1]

يفهم من هذا أن الفعل في الخطاب الحجاجي منتوع الوظيفة من إعلام، وإخبار، التي يمكنها أن تتعدى إلى التأثير عن طريق معرفة الهدف، أو المقصد من الإخبار بهذه المعلومات تدفع السامع، أو متلقي الخطاب إلى القيام بحركة نحو فعل، أو ترك، أو تراجع، أو تغيير فكر واعتقاد.

وعناية التداولية بمجال الحجاج نتيجته أن«الخطاب الحجاجي يخضع ظاهريا وباطنيا لقواعد، وشروط القول، والتلقي ما يعني انتماء القول، أو النّص الحجاجي إلى مجال التداوليات التي تحاول الإجابة عن عدد من الأسئلة من قبيل: من يتكلّم؟ وإلى من نتكلّم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلّم؟ ما مصدر التشويش، والإيضاح؟ كيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟ وتستدعي الإجابة عن هذه الأسئلة استحضار مقاصد التخاطب وأفعال اللغة بأبعادها المقالية والمقامية والتداولية»[2]

تسويغ هذا الاقتحام مجال التداولية الحجاج، وإخضاعه لشروط القول هو اللغة لأنّ تحديد مكونات القول بداية من تأليفه إلى استعماله، ومعرفة دلالته، وقياس شدة أثره ومدى استجابته لدى المتلقي كل هذا يتشكل في إطار اللغة.

فاللغة نظام يعنى بدراسة استعمال الملفوظات، والأقوال في إطارها السياقي كما حددته التداولية، التي سعت في معالجة الحجاج «بإعتباره فعلا تداوليا، لا يمكن تفسيره من دون إبراز مراتب المتكلمين وأدوارهم في أفعال الكلام، وأهمية السياق التخاطبي، كما حاولت أن تقف عند الروابط الحجاجية بإعتبارها أدوات تسهم في تحديد العلاقة الخطابية بين المتكلمين من جهة، وبين أطراف النص من جهة أخرى »[3] يتجلى عمل التداولية على درس الفعل اللغوي واستعمالاته وفق ظروف مقاميّة، وكلاميّة يحدّدها الخطاب، وفي إبرازها لأدوار المتحدثين اعتنت بأهمية الربط بين عناصر العمليّة الحجاجية، بل شمل دورها عناصر النص.

لأن«الخطاب اللغوي الإقناعي يخضع لقواعد اللغة، فإنّه يتمكن بذلك من تقديم الحجج أو استنباطها واستقرائها عن طريق الروابط مثل: ذلك، أن، حيث، لهذا، ثم،... فالروابط إذن هي أحد المؤشرات الحجاجية التي تسند معنى من المعاني إلى القولات التي يتلفظ بها المتكلم، وبها يوجه دفة الحجاج بداية ونهاية، افتتاحا واختتاما»[4] يؤخذ من هذا أنّ الروابط يمكنها التحكم في سير حركة العمل الحجاجي من ربط بين حجة، وحجة أخرى، أو بين حجة ونتيجتها، وصنع المعنى الذي به يقع التأثير بين ذوات عملية التلقي.

لكنه سرعان ما عرفت هذه الروابط تصورا جديدا في الدراسات اللغوية، واللسانية المعاصرة بعد ما ظهر اهتمام كبير فيما يسمى بالنصية، حيث لم تعد تطبيقاتها مقتصرة على الجملة، أو الجملتين، بل على نصوص بأكملها. حتى أصبحت دراسة الحجاج « كظاهرة لسانية نصية»[5] التي تحصل بوساطة كل ما يسهم في تماسك وانسجام، وتلاحم أجزاء النص، بفضل أدوات لغوية لسانية كثيرة، ومتنوعة، وذلك حسب ثراء لغة الخطاب المستعملة، كلغتنا العربية الزاخرة بأدوات الربط النصي. بيد أنّه هذه الروابط في المقاربة الحجاجية هي التي« تربط بين قولين، أو بين حجتين على الأصح، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الإستراتيجية الحجاجية العامة.»[6]

فوصل الحجج فيما بينها، أو الحجج ونتائجها يسير في تحقيق انسجام الخطاب الحجاجي، وتناسق مكوناته حتى يصير وحدة أو قطعة كاملة. « إذ أنّ من أبسط خصائص النص الحجاجي أنّه نص متناغم يسوده الانسجام بين أقسامه الكبرى، وكذلك بين تفاصيله، ودقائقه. فلا تتنافر ولا تتناقض بين المقدّمات، والنتائج بين البدايات، والنهاية بين الأجواء النفسيّة السائدة فيه. ولا بين المعاني والصور، لأنّ تناقض أو تنافر يقوض الحجاج ويهز على محاولة إقناع أو حمل على الإذعان»[7]

وعلى هذا القول أنّ غياب التماسك، والانسجام في نص ما يلغي أو ينقص من قيمة العمليّة الحجاجية لهذا الخطاب، وبالتالي لا نظفر بإذعان المتلقين.

يحصل الربط، أو التماسك في الخطاب الحجاجي بوسائل متعددة، كحروف بل، ولكن، أو حتى...لهذا لا يحصر الربط على آليات بعينها، لأنّه « إذا كانت الوجهة الحجاجية محدّدة بالبنيّة اللّغويّة، فإنّها تبرز في مكوّنات متنوّعة ومستويات مختلفة من هذه البنية.. ونجد مكوّنات أخرى ذات خصائص معجمية محدّدة تؤثر في التعليق النحوّي وتتوزّع في مواضع متنوعة من الجملة، ومن هذه الوحدات المعجمية حروف الاستئناف،...وما اتصل بوظائف نحوية مخصوصة...»[8] فمن هذه الوظائف النحويّة المخصوصة، نجد الضمائر من أكثر عناصر الربط الحجاجي في النص، ونظرا لأهميتها وقيمتها الحجاجية، لا يقتصر عملها على الربط فقط، وإنّما يمكنها أن تكون حاملة لأركان العمل الحجاجي، من ادّعاء، واعتراض تستقطب انتباه المتلقي ببحثه من جهة عن مرجع الضمير، أو إلى ما يؤول هذا الضمير، ثم بمحاولته معرفة بنيّته الدلاليّة.

لكن دراسة الربط بالضمير، والتماسك في النصوص الأدبية يختلف مع القرآن الكريم المقصد بينهما، انطلاقا من حقيقة مفادها أن الخطاب القرآني، بناء يسوده الانسجام بين وحداته، وتماسك محكم بين أجزائه، وآياته، فتصبح الدراسة في القرآن بحث عن كيفية، ومواضع هذا الربط، ماهي طرقه أو أساليبه في تشكيل هذا البناء المحكم. أمّا في النصوص الأخرى نسعى فيها للتأكد من أنّ هذا النص يتوفر على التماسك أم أنّه فاقد له.

3. دراسة التماسك الحجاجي في القرآن الكريم (حجاجية الضمير):

يستعمل القرآن الكريم كثيرا من الضمائر تختلف باختلاف المقامات، كضمائر التعريف بذات الله، ونعمه التي يناسبها ضمير المتكلم، ويستعمل عادة ضمير المخاطب عند تبشير عباده بالجنة، وفي المقابل يتعهد، ويتوعد عباده العاصين في أمر ونهي، فنراه يأتي بضمائر الغائب عند حكايته عن الأمم السابقة في أساليب بديعة متفننة، وقد تجتمع هذه الأنواع من الضمائر في آية واحدة. فيتنوع الخطاب، وتتعدد الدلالات مراعاة للمقام الذي سيقت إليه الآية؛ من ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[9]

تبدأ الآية بضمير المتكلم (أخذنا)، وهو تذكير بما أخذ الله من ميثاق على اليهود الذين نقضوه فيما بعد، أما الضمائر الأخرى، فهي ضمائر المخاطب وردت بعدة صيغ كالنهي في قوله: (لا تعبدون)، والأمر(قولوا، وأقيموا، وأتوا، وفي توليتم منكم وأنتم معرضون) ضمائر مختلفة من حيث الهيأة، والشكل مشحونة بالدلالات حول تخلف بني إسرائيل عن الطاعة، ونقض للعهد من لطائف تفسير هذا الخطاب في التحرير« أعيد ذكر أحوال بني إسرائيل بعد ذلك الاستطراد المتفنن فيه، فأعيد

الأسلوب القديم، وهو العطف بإعادة لفظ (إذ) في أول القصص. وأظهر هنا لفظ بني إسرائيل، وعدل عن الأسلوب السابق الواقع فيه التعبير بضمير الخطاب المراد به سلف المخاطبين وخلفهم؛ لوجهين: أحدهما: أن هذا رجوع إلى مجادلة بني إسرائيل، وتوقيفهم على مساويهم، فهو افتتاح ثان جرى على أسلوب الافتتاح الواقع في قوله تعالى:(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)[10] ثانيهما: أن ما سيذكر هنا لما كان من الأحوال التي اتصف بها السلف والخلف، وكان المقصود الأول منه إثبات سوء صنيع الموجودين في زمن القرآن، تعين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح؛ ليأتي توجيه الخطاب من بعد ذلك إلى المخاطبين..»[11]

فعلى غرار وظيفة الربط، كانت هذه الضمائر تفضي إلى حجج ضد بني إسرائيل، الذين ذمهم الله بنقضهم للعهد، وزيغهم عن الحق.

و قوله تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾[12] يحتوي هذا الخطاب على عدد كبير من الضمائر، التي تختلف مرجعيتها، وتتعدد من إحالة ضميرية خارجية وداخلية، حيث لم يتفق المفسرون حول مرجعية بعض الإحالات الضميرية الخارجية؛ لاسيّما الضمائر الأولى من هذا النص، آتيناه، فانسلخ، فأتبعه، لكنه، رفعناه، هواه، فمثله، فعدم الاتفاق في مرجعية هذه الضمائر يعود إلى سبب النزول «منهم من يقول أنّها نزلت على بن بلعم بن عوراء؛ ومنهم من يرى أنّها نزلت على أمية بن الصلت»[13]

والضمائر أيضا التي تحيل على مرجع خارجي، فهي ضمائر المتكلم(الله)، كآتينا، وشئنا ورفعنا، وآياتنا، وبآيتنا، وضمائر المخاطِب موجهة إلى النّبي صلى الله عليه وسلم (أنت)؛ هي: واتل، تحمل، تتركه، فاقصص. وهناك ضمائر تعود على الكفار، باعتبار أن الخطاب يقصدهم. ضرب الله تعالى لهم مثلا في أنّهم لم ينتفعوا بالرسالة التي أرسلها لهم، وهي سبعة ضمائر:

عليهم	كذّبوا بآياتنا
لعلّهم	أنفسهم
يتفكرون	يظلمون
الذين كذّبوا	

جاءت هذه الضمائر بصيغة الجمع الغائب، فهي راجعة « إلى المشركين الذين وجّهت إليهم العبر، والمواعظ من أول السورة؛ وقصت عليهم، وخاطبهم إيّاه بالنداء جار على طريقة خطاب الغضب»[14] حصل التشبيه في أنّ هؤلاء المكذبين من اليهود، أو الكفّار لم يؤمنوا ولم يعملوا بالرسالة،

والآيات البيّنات التي آتتهم من عند الله، فيصبحوا بذلك كالكلب في لهثه الذي مهما فعلت له لا ينقطع عن فعله.

ومن الملاحظ أن الضمائر جسدت دورا كبيرا في حجاجية هذا النّص القرآنيّ، في سعيها تحقيق اقتناع المتلقي. أولا كانت من ناحية توفيرها للربط النصي، والتماسك بين جمل النص والآيات، ومن جهة أخرى يتحقق الحجاج في الضمائر عن طريق حركيتها في النص. فتكون مفتاحا للتأويل، وصنع الدلالات والحجج البيّنة أمام المعترض، أو الخصم، مثل الضمائر التي تحيل إلى القوم الكافرين، أوالمكذبين اليهود، حيث كانت حججا وتذكيرا لهم بأنّهم لم يقتنعوا بها، وفي هذا لعلهم ينزجرون عمّا هم عليه من التكذيب.

ومن الآيات التي تحتوي على ضمائر ذات صبغة حجاجية قوله تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[15] هي ضمائر الغائب تعود على الرجل؛ أو الإنسان الذي جاءه الموت، وهو في غفلة من أمره، وهي « عائدة إلى ما عادت إليه الضمائر السابقة من (قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون)..لقصد إدماج التهديد بما سيشاهدون من عذاب أعدّ لهم، فيندمون على تفريطهم في مدة حياتهم. وضمير الجمع في (ارجعون) تعظيم للمخاطب بصيغة الجمع لقصد التعظيم طريقة عربية، وهو يلزم صيغة التذكير فيقال في خطاب المرأة إذا قصد تعظيمها: أنتم. ولا يقال أنتن»[16]

يأتي الضمير الأول أنّه غفلة(حتّى إذا جاء أحدهم الموت)، ثم أصبح مفردا مكلما أو طالبا من المُخاطَب (الله) في تعظيم؛ وتكبير له، إلى أن تترجى ويتمنى سياق هذه الضمائر في العودة للقيام بعمل صالح فيما خلّت، إلاّ أنّها تأبى الرجوع. فإذا جاء الكتاب لرّاد له، فرسمت بذلك منحنى بيانيا بدأ متصاعدا فجأة، ثم لا يلبث أن يحاول الخصم أن يعترض هذا المفاجئ لكن المحاولة يائسة غير مجديّة، فلا ريب أنّ تلقي الضمائر بهذا الشكل تكون إنذارا أولا، ودافعة للعمل ثانيا باستغلال فرصة الحياة.

ومّما يعود فيه الضمير على المنكرين من الكفار قوله تعالى: ﴿ طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[17] فالضمير في (يكونوا، وعليهم وأعناقهم، ويأتيهم، وكانوا، وكذبوا) تعود على المشركين. فقوله: (لعلك باخعٌ نّفسكَ أَلَّا يكونُوا مؤمنين) قامت الضمائر في (لعلك، باخع، نفسك) « بتحويل الخطاب من توجيهه إلى المعاندين إلى توجيهه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام»[18]

هذه إحدى الوظائف التي تحملها الضمائر من الاعتناء بنظام سيّر المواضيع داخل الخطاب الواحد من توجيهه نحو غرض المرسل، وهذا مراعاة لسياق النص. بعدما شكلت الضمائر الأولى تساؤلا من النّبي صلى الله عليه وسلم حول لماذا لم يؤمن هؤلاء المشركون، الذين يتحدّاهم في ضمير (ألّا يكونوا) وهو« عائد إلى معلوم من المقام، وهم المشركون الذين دعاهم النّبي صلى الله عليه وسلم وهو مقام التحدّي الحاصل من قوله (طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) للعلم بأن المتحدّين هم الكافرون المكذبون»[19] والضمائر في سياق هذا التحدّي هي حجج، وإنذار، وتحذير بسبب تكذيبه لما جاءهم من الآيات البيّنات.

كقوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[20] فيها دعوة إلى النظر ، والتأمل في آيات الله. آية الإنبات في الأرض، « فالمذكور في هذه الآية أنواع النبات دالة على وحدانية الله لأنّ هذا الصنع الحكيم لا يصدر إلّا عن واحد لا شريك له، وهذا دليل من العقل، ودليل أيضا على إمكان البعث لأنّ الإنبات بعد الجفاف مثيل لإحياء الأموات بعد رفاتهم...وهذا دليل تقريبي للإمكان فكان في آية الإنبات تنبيه على إبطال أصلي عدم إيمانهم وهما:أصل الإشراك بالله، وأصل إنكار البعث»[21]

فقد سيقت هذه الحجة على طريقة الاستفهام الذي عرف جوابه، وفي ذلك إنكار عليهم أنّهم لم يعتبروا بهذا الدليل المرئي.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[22] خطاب محاججة من النّبي صلى لله عليه وسلم مع مشركي قريش حول ألوهية عيسى _عليه السلام_ لهذا معظم الضمائر تعود على هؤلاء القوم الذين يجادلون في شأن عيسى عليه السلام. ففي تفسير « قوله (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا) أي ما ضربوا لك ذلك المثل إلّا جدالا منهم، أي محاججة وإفحاما لك ليسوا بمعتقدين هَوْن أمر آلهتهم عندهم، ولا بطالبين الميزَ بين الحق والباطل، فإنّهم لا يعتقدون أن عيسى خير من آلهتهم ولكنّهم أرادوا مجاراة النّبي في قوله ليفضوا إلى إلزامه بما أرادوه من المناقضة»[23]

فالضمير في (قومك) هو للنّبي صلى الله عليه وسلم، قومك الذين يستهزئون بضربنا لهذا المثل (إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم)، والضمير في (ما ضربوه) أعتقد أنّه راجع للمثل الذي اعتمدوا عليه للمحاجة التي هي من سماتهم المخاصمة بالباطل، أما الضمير في (إن هو) لعيسى عليه السلام، وفي (جعلناه) اعتراض لادّعائهم الذين ادّعوه حول ألوهية عيسى، لأنّ قوله تعالى (و جَعَلناهُ مَثلاء لّبنِي إسرائيل) « فهو إبطال لشبهة الذين ألّهوه بتوهمهم أن كونه خلق بكلمة من الله يفيد أنه جزء من الله، فهو حقيق بالإلهية، أي خلقه في بطن أمه دون أن يقَربَها ذكر ليكون عبرة عجيبة في بني

إسرائيل لأنّهم قد ضعف إيمانهم بالغيب، وبعد عهدهم بإرسال الرّسل فبعث الله عيسى مجدّدا للإيمان بينهم، ومبرهنا بمعجزاته على عظم قدرة الله،..»[24]

فأصبح الضمير هنا الذي أحال إلى نبّي الله عيسى_ عليه السلام_ آية، وعلامة وحجة قاطعة لادعاءات المشركين، وردّا على شبهاتهم التي يلقون بها على أنبياء الله ورسله فمن جهة أولا: إبطال ألوهية الأنبياء مع الله وماهم إلّا عباد الله اصطفاهم لرسالاته، وثانيا: أنّها من قدرته المعجزة.

4. الخاتمة:

تعتبر اللسانيات النصية من بين المنعرجات المعرفية الكبيرة التي غيرت مجرى مقاربات تحليل الخطاب؛ بعد أن أطلقت العنان للغة من دائرة تركيب الجملة إلى دائرة تركيب الخطاب، ولا مست الحجاج بصنع نسيجه وفق نظام بنائي يقتضيه سياق تخاطب موضوع ما.

إنّ الضمائر في القرآن الكريم تتعدد وظائفها من مساهمة في الربط بين أجزاء الآيات، بدايتها مع وسطها إلى خاتمتها، تحمل حجة، أو تشير إلى نتيجة لها، وتكون مؤشر تأثير للظفر باقتناع القارئ.

على غرار ما يحويه الخطاب من دلالات، ومعان التي نراها تنتظم وفق ترتيب بديع، وتناسق، كتناسق حبات العقد فهذا التماسك النصي وحده يساعد في نجاح العمليّة الحجاجية. آخذا القارئ أو المتلقي بين ذهول، ومتعة تأثيرية، لهذا يمكننا القول التماسك النصي من التماسك الحجاجي.

نصيّة الخطاب الحجاجي تتحقق بفعل وسائل الربط، الضمائر واحدة منها.لجيمع مكوناته، وعناصره (بين جمله، و فقراته، ومقدماته، ونتائجه، وحججه...) التي تضفي على النص حسن الصياغة، وجمالية إبداعيّة تواصلية بينه وبين المتلقي.

الهوامش:

[1] _ رشيد الراضي، المبادئ النظرية والمنهجية للحجاجيات اللسانية، مجلة مؤمنون بلاحدود، المملكة المغربية_ الرباط، قسم العلوم الإنسانية والفلسفة، ص19،20. نقلا عن: - O. Ducrot, Les Échelles argumentatives, Les Éditions de Minuit, Paris, 1980, p. 15

[2] _ رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، (مقال)، مجلة عالم الفكر محكمة تصدر تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 40، العدد 2، أكتوبر_ ديسمبر 2011، ص 68. ينظر، حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي(عناصر استقصاء نظري)، مقال، مجلة عالم الفكر، عدد01، مج30، يوليو_ سبتمبر 2001، ص102. و ينظر، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغات النقد المعاصر) دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي_ ليبيا، ط1، 2008، ص 176، 177.

[3] _ رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص 87.

[4] _ المرجع نفسه، ص 101.

[5] _ حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي(عناصر استقصاء نظري)، مقال، مجلة عالم الفكر، عدد01، مج30، يوليو_ سبتمبر 2001، ص 103.

[6] _ أبوبكر العزاوي، اللغة والحجاج، الدار البيضاء، ط1، 1426_ 2006، ص 27.

[7] - سامية الدريدي الحسنى، دراسات في الحجاج قراءة لنصص مختارة من الأدب القديم، عالم الكتب الجيد، عمان، ط1، 1430هـ.2009م، ص 7.

[8] - شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، (فريق بحث في البلاغة و الحجاج)، إشراف حمادي صمود/ منوبة، تونس، مجلدxixxx، ص 377.

[9] - سورة البقرة، الآية 83.

[10] - سورة البقرة، الآية 40.

[11] - ابن عاشور، التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر، د.ط،1984،ج1، ص 582.

[12] - سورة الأعراف، الآيات 175، 177.

[13] - الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر العربي، بيروت_ لبنان، ط1، 1401هـ_ 1981م،ج15، ص 57، 58.

[14] - ابن عاشور، التحرير و التنوير، ج9، ص 6.

[15] - سورة المؤمنون، الآيات 99، 100.

[16] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 18، ص 123.

[17] - سورة الشعراء، الآيات 1، 7.

[18] - ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ج 19، ص 93.

[19] - المصدر نفسه، ج 19، ص 94.

[20] - سورة الشعراء، الآية 7.

[21] - المصدر السابق ابن عاشور، ج 19، ص 100، 101.

[22] - سورة الزخرف، الآيات 58، 59.

[23] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 25، 239.

[24] - المصدر نفسه، ج25، ص 241.